القناع وقناع الإمام الحسين علیه السلام فی شعر عبد الوهاب البیاتی

تاريخ الوصول: ۱۳۹۰/٦/۱۰هـ ش
تاريخ القبول: ۱۳۹۰/۹/۱۱هـ ش

بهرام أمانی جاکلی*
رقية سفری**

الملخص

القناع ليس مجرد حالة من تلبّس شـخصية أخرى، يختفی صوت الشاعر المباشـر خلفها من بداية القصيدة إلى نهايتها، أو هو الاسم الذی يتحدث من خلاله الشـاعر عن نفسـه متجردا من ذاتية، أو هو مجرد، شخصية تاريخية... يختبئ الشـاعر وراءها ليعبر عن موقف يريده، أو يحاكم نقائص العصر الحديث مـن خلالهـا، أو ليتحدث من ورائه عن بعض شـواغله وهمومه، أو ليهرب من الحاضـر بخلق بديل له. يمكننـا القول، إنَّ القناع فی شـعر العربی له عوامل متعددة منها: العوامل السياسـية، والاجتماعية، والفنيـة، والثقافية، والقومية، وللقنـاع أنـواع، منها: الدينـی والصوفـی، والتاريخی، والأدبی، والأسـطوری، والشعبی، وأنماطه هی البسيط، والمركب والمخترع.

وظف البياتی شخصية الإمام الحسين علیه السلام فی ديوانه بصورة غير تصريحية لإثراء تجربته الشعرية وبيان معاناته ومأساة شعبه. إذ تقمص هذا القناع ليسلط الضوء على العربية بشـكل غير مباشـر ويبرزها بكافة جوانبهـا الأليمة ووازن فـی تقمّصه لهذا القناع بيـن ملامح تجربية معاصرة والملامـح التراثية باحثا عن نصير فی ضياع وطنه.وللشـاعر طاقته الابتداعية فيقوم بتوظيف الشخصية بحيث تناسبت مع الحاجة العصرية.

الكلمات الدليلية: القناع، قناع الإمام الحسـين علیه السلام، الإمام الحسـين علیه السلام، عبدالوهاب البياتی.

*. أستاذ مساعد بجامعة زنجان، إيران. Amanichacoli@yahoo.com
**. خريجة جامعة العلامة الطباطبايی، إيران.

المقدمة

يعبر القناع من الميزات البارزة فی الشعر؛ لأنَّ العوامل السياسية والاجتماعية فی البلاد العربية خاصّة وما ألحقته فی الإنسانية من أضرار فادحة، مادّيا ومعنويا، جعلت الإنسان والشاعر، إزاء مجموعة من التناقضات ممّا دفعهما إلى الخروج عن دائرة المألوف، والتمرد على قيم الثبات والجمود، فكانت القصيدة الشعرّية محطقه أولى أمام الشاعر، وميدان إبداعه. إنَّ الشاعر المعاصر يعمد إلى توظيف الأحداث والشخشيات التاريخية والدينية، لتكون تعبيرا عن مواقف يريدها، أو ليحاكم العصر ونقائصه من خلالها، وهو فی ذلك يختار الأحداث والشخصيات التی تتلاءم ومضمون تجربته، فيتصل بها اتصالا لايعمقها وتكون استلهاماته التاريخية، والدينية صورة رامزة للواقع المستفز بهموم القظايا السياسية حيث يخبیء الشاعر فيها لون فكره وخطوط رأيه. وصارت "تقنية القناع" مظهر أمن مظاهر الحداثة فی الشعر العربی الحديث وتعد الشخصية التاريخية والدينية معادلا فنيا، تعبر عن انكسار الواقع، وفقدان الذات لذلك لجأ الكثير من الشعراء المعاصرين ومن بينهم الشاعر عبداوهاب البياتی وهو من روّاد الشعر العربی الحديث والشاعر العبقری فی هذا المجال، ونراه يهتم بموضوع القناع وإلى توظيف الشخصيات التاريخية والدينية ومن بينها شخصية الإمام الحسين عليه السلام لما تحمله من أبعاد توحی بقدرة الفرد غلى تغيير الواقع وتجاوز المحن. ويقبح الشاعر فيها أعمال الحكام المستبدين الظلمة فاختار الشاعر اسم الحسين عليه السلام رمز للمقاومة والاستشهاد دون أن يصرح قصّته مباشرة ويبين أسلوب الذين يريدون تضليل الناس وإبعادهم عن الذين بدلائل سخيفة متخلفة. أما هذه المقالة التی تحمل "قناع الإمام الحسين عليه السلام فی شعر البياتی" فهی تهتم بدارسة القناع فی الشعر العربی خاصة وعن سابقية الدراسة فعلينا أن نشير إلى دراسة "ظاهرة القناع" فی كتاب "قصيدة القناع فی الشعر العربی المعاصر" لمحمد على كندی وكتاب "استدعاء الشخصيات التراثية فی الشعر العربی المعاصر" لعلی عشری زايد وغيرها وعّدة مقالات غير أنَّ تلك الدراسات لم تتناول "ظاهرة القناع" بشكل تفصيلی وما وجدنا فی أی كتاب ومقالة موضوع قناع الإمام الحسين عليه السلام فی شعر البياتی. أما أسئلة البحث فهی: ١. ما هو مفهوم القناع وماهيته فی الشعر العربی عامة وعند

البیاتی خاصة؟ ۲. کیف وظّفَ البیاتی قناع الحسین علیه السلام فی شعره؟

عبدالوهاب البیاتی وخصائصه الشعریة

«ولد عبدالوهاب البیاتی، أحمد جمعة خلیل البیاتی فی ۱۹ کانون الأول سنة ۱۹۲٦م فی حی صغیر بالقرب من مسجد الشیخ عبدالقادر الکیلانی فی بغداد.» (بیضون، لاتا: ۱۳) «أکمل دراسته فی دار المعّلمین العالیة عام ۱۹۵۰م وانصرف منذ ذلك الحین إلی الأدب وطبع بعض الدواوین من أشعاره الوجدانیة. غادر البیاتی العراق عام ۱۹۵۵م، وعاش فی مصر ولبنان وسوریا. وزار معظم أقطار أوروبا الشرقیة والغربیة وفی سنة ۱۹٦۳م أسقطت عنه الجنسیة العراقیة، وفی الفترة ۱۹۷۰-۱۹۸۰م أقام الشاعر فی إسبانیا وفی شباط ۱۹۹۱م وصل البیاتی واشنطن، إذ کانت لهذه الزیارة أهمیة بسبب قصف القّوات الأمیرکیة وحلفائها بغداد. قال البیاتی فی مؤتمر صحافی هناك: إنَّ المغول دمّروا بغداد فی العصور الوسطی ولکنّهم کانوا أقلّ وحشیة من هذا القصف الجائر الذی تقوم به الدولة حضاریة کالولایات المتحدة.ومن هناك ذهب إلی عمان.وإنّ إیران کانت آخر بلدة زارها البیاتی الرّحالة ثم غادر إلی دمشق، وأقام فیها حتی وفاته عام ۱۹۹۹م. صدرت له الدواوین الشعریة، منها: ۱. ملائکة والشیاطین ۲. أباریق مهشمة ۳. رسالة إلی ناظم حکمت ٤. المجد للأطفال والزیتون ۵. أشعار فی المنفی ٦. صفر الفقر والثورة ۷. الذی یأتی ولایأتی ۸. قصائد حب علی بوابات العالم السبع وأیضا له صدرت مسرحیة ومؤلفات غیر شعریة.» (فوزی، ۱۳۸۳ش: ۳۲-۳۳-۳۵-۳٦-۳۷-۳۸-۵٦)

ولشعره خصائص نشیر إلی أهمها عابرین: «۱. شعره رسم لأصوات غامضة تنبعث من جوف بئر الشفاه الإنسانی، وشعره یحیل هذه الکلمات الغامضة المشوشة المتناثرة علی نظام لغوی صارم. ۲. کتابته اختراق لکینونة اللغة وکینونة شعره المعبر عنه. ۳. شعره هو الذی یبقی فی مواجهة الشر والظلم الکونی والتعاسة والموت. ٤. موضوعیة شعره تربط الزمن فی صنیعة الزمن الکلی وبذلك یقضی علی الذاتیة والواقعیة والرومانسیة. ۵. شعر البیاتی هو شعر الثقافة العالمیة ولیس شعر البساطة، ففیه أبعاد وأعماق وإشارات ثقافیة، إلی الأساطیر والأدیان والتاریخ والثقافة والتراث والآداب العربیة والعالمیة. ٦. شعر البیاتی هو شعر الرمز والغموض

الجميل، غير المغلق والبناء المركب وهو بالشـعر السهل. ۷. شعر البياتی هو شعر التقنيـات الحديثة المعقدة، من دراما ومونولوج و... . ۸. شـعر البياتی هو القضايا الثورية والساسـية الوطنية والعالمية المتشابكة.هذا وإنّ البنية الثقافية للمجتمع العربی بنية نامية متطورة، تسـتطيع متابعة شعر متطور، مثل شعر البياتی.ولعلَّ البياتـی أوّل شـاعر يتحدّث فنّيا عن مفهـوم القناع فی الشـعر ولعلّه أيضا أكثر الشعراء قوّة ونضجا فی استخدام القناع، بالإضافة إلی استخدامه الأسطورة والتاريخ والبياتی شاعر الصنعة، ولعلّ البياتی فی العصر الحاضر يذكّر يأبی تمام فی الشعر العربی القديم. ولقد حرص البياتی علی موسـيقا الشـعر وضلّ شـعره وهو يكتبه علی التفعيلية، قوی الإيقاع وتؤكد حضور الموسيقا فی الشعر، بما يناسب الشعر.» (دخيسی، موقع وحدة المغرب الاكترونی) تبدو عقيدة البياتی من خلال وطنيته وقد انبثق منها مذهبه القومی، إنّه مغرم بالقومية إلی أبعد حدود الإيمان، وجعلها مصطلحـا فی أدبه ورمزا فی فلسـفته. عبدالوهاب البياتی كان من الشـيوعيين وأنشـد قصائد ديوانه الثانی "أباريق مهشمة" وكان ملتزما فی هذه القصائد خاصة فـی قصيدة "مذكرات رجل مجهـول" ويتكلم البياتی حول الإمام الحسـين عليه السلام وترتبط بقضايا المجتمع.يری الناقد الدكتور أحمد أبوحاقة أن التزام البياتی مزيج من الماركسية والقومية والوجودية. (أبوحاقّة، ۱۹۷۹م: ٤٤٥-٤٤٦)

«أصبح البياتی أكثر شـهرة وتقدّم للقرّاء كشـاعر تقدّمی ومناضل سياسـی. فالسياسـة قدّمـت له الاشـتهار وحقّقـت له الطموحـات وهكذا انجـرّ البياتی، بسـبب علاقته الأدبية بالشـيوعيين، إلی نوع من النشاط السياسی يسمّی نشاطا ديمقراطيا.» (فوزی، ۱۳۸۳ش: ۳۲) وبما أنَّ شخصية كل أديب وأفكاره تنعكس فی آثاره أی آثاره مرآة أفكاره وشخصيته، عندئذ نحن نری هذا النوع من النشاط السياسی فی شعر البياتی وآثاره.

القناع لغة واصطلاحا

المعنی اللغوی للقناع

تدل كلمـة القناع علی معان متعددة حسـب المعاجم والكتـب اللغوية: «ما تَتَقَنَّعُ به المرأةُ من ثوب تُغطّی رَأسَـها ومحاسـنها.وألقی عن وجهه قناع الحياء.

والمقنـعُ والمقننعة ما تقنَّع به المرأة رأسـها وفم مقنع أی إنسـانة معطوفةٌ إلی داخل.» (ابن منظور، لسـان العرب، مادة (قنع)؛ والبستانی، محیط المحیط، مادة (قنع)؛ وبسیسو، ۱۹۹۹م: ۲٤)

المعنی الاصطلاحی للقناع

یعـدُّ البیاتـی أوّل من أشـار إلی القناع مصطحـا نقدیا فی کتابـه "تجربتی الشـعریة" ولکنّه لیس کذلك فی مجال الإبداع الشـعری ویقول خالد یسـیر فی جریدة "الأسـبوع الأدبی": «فقد سبقه الشاعر عمر أبوریشة فی قصیدة له عنوانها "کأس" یمکن أن تعدّ من البدایات فی اسـتخدام تقنیة القناع.» (یسـیر، جریدة الأسـبوع الأدبـی، العدد ٦٩٤) ولکن محمـد علی کندی یفتـرض: «أنَّ قصیدة "المسـیح بعد الصلب" للسیاب أولی القصائد التی تمَّ فیها توظیف "القناع" بشکل ناضج وفاعل فی الشعر العربی.» (کندی، ۲۰۰٦م: ۸۳) هذا و«هو وسیلة فنیة لجأ إلیها الشـعراء للتعبیر عن تجاربهم بصورة غیر مباشـرة، أو تقنیة مسـتحدثة فی الشعر العربی المعاصر، شاع استخدامه منذ ستینیات القرن العشرین بتأثیر الشعر الغربی وتقنیاته المسـتحدثة، للتخفیف من الحدّة الغنائیة والمباشـرة فی الشعر وذلك من خلال الشخصیة التراثیة.» (عزام، ۲۰۰۸م: ۱)

«فلما یرتدی الإنسـان القناع الذی یخفی وجهه والرداء الذی یغطی جسـده، یریـد أن یخرج من شـخصیة أمام ذاتـه وأمام الآخرین ویدخل فـی ذات هویة أخـری.» (حـداد، ۱۹۸٦م: ۱٤۹) وبناء علی ذلك «یندمج فـی القصیدة صوتان: صوت الشـاعر ومن خلال صوت الشخصیة التی یعتبر الشاعر من خلالها.» (عزام، ۲۰۰۸م: ۱) «ولکنّهما متناغمان متآلفان فی سمفونیة واحدة وعمل واحد والصلة بین الشـاعر وقناعه الرقیقة والعاجزة بینهما شـفاف.» (موسـی خلیل، ۲۰۰۳م: ۲۱۰) ولقد قام البیاتی باسـتدعاء هذا المصطلح من النقد الغربی معّرفا "القناع" بأنّه: «الاسـم الذی یتحدث من خلال الشـاعر نفسـه، متجردا من ذاتیته أی أنَّ الشاعر یعمد إلی خلق وجود مستقل عن ذاته، وبذلک یبتعد عن الحدود الغنائیة والرومانسـیة التی تردی أکثر الشـعر العربی فیها الانفعالات الأولی لم تعدّ شکل القصیدة ومضمونها بل هی الوسـیلة إلی الخلق الفنی المسـتقل. إنَّ القصیدة فی

مثل هذه الحالة، عالم مستقل عن الشاعر ـ وإن كان هو خالقها ـ لاتحمل آثار التشويهات والصرخات والأمراض النفسية التی يحفل بها الشعر الذاتی الغنائی.» (البياتی، ١٩٩٣م: ٤٠)

القناع فی الشعر

دوافع التقنّع

استخدم الشاعر العربی المعاصر القناع؛ وسيلة تعبيرية فی بناء القصيدة الحديثة، يدفعه إلی ذلك دوافع شتی يمكن أن نتدرج عوامل اتجاه الشعراء العرب إلی استخدام القناع إلی خمسة أنماط وهذه المجموعات الخمس هی:

١. العوامل السياسية والاجتماعية ٢. العوامل النفسية ٣. العوامل الثقافية ٤. العوامل الفنية ٥. العوامل القومية.

العوامل السياسية والاجتماعية

نحن نری الظروف السياسية والاجتماعية الخانقة التی مرّت بها الأمة العربية و ظروف الحرب العالمية الثانية و ما ترتبت عنها من مؤامرات ودسائس، كانت سببا من أسباب اتجاه الشاعر المعاصر العربی إلی استخدام الوسائل والأدوات الفنّية الخاصة التی يستطيعون بواسطتها أن يعبروا عن آرائهم وأفكارهم فنيه غير مباشرة من بعطش السلطة ومن الأساليب التی لجأ إليها: استخدام الأسطورة، الرمز وتقنية القناع التی تكون ستارا يحتمی به أصحاب الكلمة ويلجأون وراءه من تنكيل السلطة ومن مواجهتها مباشرة بآرائهم فيها. (كندی، ٢٠٠٣م: ١٣٣-١٣٤)

إنَّ شعر البياتی يمتلئ بالأقنعة التی ترتبط بالعوامل السياسية والاجتماعية فاستعار أصواتا أخری اتخذها أبواقا يسوق من خلالها آراءه والأصوات التی ارتبط بالتمرد علی الواقع الفاسد فی عصرهم فانتشرت شخصيات كالحسين عليه السلام فی شعره ليمارس مقاوته للطغيان والتخلّف.

العوامل النفسية

رأی علی عشری زايد أن: «دليل العودة واستخدام الأدباء والشعراء إلی توظيف القناع واستخدام التراث والأساطير يمكن أن يصوروا آلامهم وهمومهم من خلال

هذه الأقنعة، تلک الآلام والهموم التی تعجز الوسائل الشعرية العادية عن تصويرها وعندئذ كثيرا ما ينتاب الشاعر المعاصر نوعا من الإحساس بالغربة فی هذا العالم، فكان هذا الإحســاس المزدوج بالغربة وبجفاف الحياة وتعقيدها يدفعه إلى الواقع ونشدّان عالم آخر أكثر نضارة وبكارة وأكثر سذاجة وعفوية فی نفس الوقت وكان ينشــد هذا العالم بين أحضان التراث والمعاصر كما فعل البياتی.» (عشری زايد، ٢٠٠٦م: ٤٢-٤٤)

العوامل الثقافية

و هی العوامل التی ساعدت على اتجاه الشعراء المعاصرين إلى استخدام القناع وهذه العوامل يمكن أن نجعلها على أساس عاملين: «أوّلهما هو تأثير حركة إحياء التراث والدور الذی قام به رواد هذه الحركة فی كشــف كنوز التراث و تجلياتها و توجيه الأنظار إلى ما فيها من قيم فكرية و روحية وفنية صالحة البقاء والاستمرار؛ و أمّــا العامل الثانی من هذه العوامل الثقافية فهو تأثير الشــعراء العرب العاصرين بالاتجاهــات الداعية إلى الارتبــاط بالموروث فی الآداب الأروبيــة الحديثة ولقد كان هــذا العامل مكملاً للعامل الأول.» (المصدرنفســه: ٢٥-٢٦) «ولقد كان من أهم العوامل التی تأثر بها الشــعراء المعاصرين من الثقافة الأروبية الحديثة دعوة الشــاعر والناقد الانجليزی ت. اس. اليوت فيمــا يتعلق بتقنية القناع وإلى ضرورة ارتباط الشاعر بموروثه وإلى التقاليد الشعرية وضرورة إيجاد "المعادل الموضوعی" للعواطف والمشــاعر، قد انتشــرت انتشارا واسعا بين الشــعراء والنقاد العرب وقد تكون محاولة الشعراء العرب تحقيق "المعادل الموضوعی" فی قصائدهم واستلهام نماذجه المحققة شــعريا فی النتاجات الغربية، من أهم الأســباب التی قادت إلى ظهور "تقنية القناع" فی القصيدة العربية الحديثة.» (كندی، ٢٠٠٣م: ١٤٩)

ولعل أثر "إليوت" ومعادله الموضوعی واضح فی تعريف البياتی للقناع إذ «نحن نلمــح فی قول البياتی هذا صــدی قويا لنظرة إليوت فــی المعادل الموضوعی.» (عشــری زايد، ٢٠٠٦م: ٢١) ولايجد البياتی نفســه حرجا متابعة إليوت، بل ربمّا كان حريصا على ذلك فی مثل قوله: «كنت أقيس المســافة بالكلمات، كما كان يفعل "إليــوت" عندما كان يقيس الزمــن بملاعق الشــای.ولذلك افتتن البياتی

بترديد أفكاره فى كل مناسبة وبخاصة ما تعلق منها بالمعادل الموضوعى، متخذا من تلك الأفكار مبررا لاستخدام الشخصيات التراثية.» (كندى، ٢٠٠٣م: ٧٠)

العوامل الفنّية:

راح الشــعراء يبحثون عمّا يخفف من السمات الغنائية والذاتية فظهرت داخل الشــعر الحديث اتجاهــات ذات منحى موضوعى تمثلت فى خلــق القصيدة ذات المنحى الدرامى وقصيدة المنولوج والقصيدة المتعددة الأصوات ولقد رغب شعراء العرب فى الاســتفادة من التقنيات الجديدة التى برزت فى الشــعر الغربى لإعطاء مزيد من الأبعاد الجمالية على أشــعارهم، ولا شــك أنّ القناع واحد من بين هذه التقنيات الجمالية تحدث عنها. (عمر يسير خالد، منتديات كووه)

العوامل القومية:

فى البداية يمكن أن يكون اتجاه الشــاعر العرب المعاصر إلى استخدام القناع وعلاقة بموروثة الاحتلال الإنجليزى والأمريكى وازدياد المطامع الأروبية فى البلاد العربيــة وأيضــا كان لحرب حزيران عــام ١٩٦٧م دور واضح فى تعامل الشــعراء أن يعتصموا بتراثهــم وأبطالهم فى مواجهة العدوان.وفى مجال الدافع إلى اختيار شخصيات الأقنعة عند البياتى مثل: الحلّاج، والإمام الحسين عليه السلام، والخيام، وعبدالله كوران... يمكننا القول حين تتعرض أمة من الأمم لخطر داهم يهدد كيانها القومى فإنهــا لاتلبث أن ترتــد تلقائيا بحركة رد الفعل إلى جذورهــا القومية التى ترتكز عليهــا كل أمة فى مواجهة أية رياح تحاول أن تعصف بوجودها القومى، فتمنحها إحساســا قويا بشخصيتها القومية ويقينا راســخا بأصالتها وعراقتها.» (عمر يسير خالد، منتديات كــووة) واختار البياتى أيضا هذه الشــخصيات التراثية بأن تكون لدفاع عن قضية الإنسان فى مواجهة العدوان.

أنواع القناع حسب أصولها

الشــعراء يتقمصون الشــخصيات الدينية، والتاريخية، والأدبية، والأسطورية... ذاتهــا قناعا يحاولــون من خلاله أن يبثــوا أفكارهم، وأمانيهــم، والأقنعة جميعا مســتمدة من التراث إلا فى القليل النادر الذى التفت فيه - خاصة البياتى- إلى

بعض الشخصیات الوطنیة، أو الأدبیة، أو القومیة، أو الإنسانیة المعاصرة، فیعبر من خلالها.ویمکن أن تقسم أنواع القناع وفی شعر البیاتی إلی أربعة مصادر أساسیه، هی: ١. الأقنعة التاریخیة: الإسکندر المقدونی، صلاح الدین الأیوبی، هاملت ٢. الأقنعة الشعبیة: السندباد، شهرزاد و... ٣. الأقنعة الصوفیة: الحلاج، ابن عربی و... ٤. الأقنعة الدینیة: النبی المسیح والإمام الحسین‌ؑ. والتراث الدینی مصدر غنی من مصادر الإلهام الأدبی، استمد منه الأدباء موضوعاتهم و نماذجهم الأدبیة و الأدب العالمی یحفل بالکثیر من الأعمال الأدبیه العظیمة التی تدور حول الدین وقد کان الکتاب المقدّس مصدرا للأدباء الأروبیین الذین استمدوا منه شخصیات ونماذج أدبیة.» (عزام، ٢٠٠٨م: ١٤) و وظف البیاتی بعض القصص و الرموز الإسلامیة فی شعره فالتأثیر القرآنی و الإسلامی محسوس فی أشعار البیاتی.

أنماط القناع

تتمثل "تقنیة القناع" فی أنماط متعددة منها: ١. القناع البسیط ٢. القناع المخترع ٣. القناع المرکب.

القناع البسیط

«یعتمد الشاعر علی شخصیة واحدة مفردة، یسقط علیها تجربة معاصرة بکل همومها و هواجها، بعد أن عایش تلك الشخصیة، فترة من الزمن و تمثّل عصرها و ظروفها.» (کندی، ٢٠٠٣م: ١٨٣)

إن الشعر الحدیث مملوء بقصائد المفرد أو البسیط ونموذج لهذه النمط قصیدة "مذکرات رجل مجهول" من دیوان "أباریق مهشمة" و قصیدة أخری "رسائل الإمام الشافعی" من دیوان "قصائد حب علی بوّابات العالم السبع" للشاعر عبدالوهاب البیاتی فی کیفیة استخدام الرموز و شخصیاته و إنّه استطاع أن یبنی القصیدة کلها علی الرموز الواحدة.

القناع المخترع

القناع المخترع أو ما یسمّی قناع الشخصیات المبتدعة، أی لیس هناك شخصیة تاریخیة فی الأصل بل الشاعر یبتدعها من واقعه التاریخی أو المعاصر

وتصبح من رموزة الشخصية.» (صدقی و عبدالله زاده، مجلة العلوم الإنسانية، ١٦)

قناع الإمام الحسين عليه السلام فی شعر عبدالوهاب البياتی

كمـا نعلم اشـتهر عبدالوهاب البياتی كثائر و مناضل ضـدّ نظام غير متكافئ يسـيطر على مجتمعه و مـن ثمّ قد حاول دوما أن يحقّـق العدالة و الحق. فمن هذا المنطلق نلمس المشـابهة من حيث الأفكار والعقائد بينه وبين الشـخصيات التراثية التی يوظفها كقناع فی أشـعاره و منها الإمام الحسـين عليه السلام. وذكر البياتی فی شـعره، اسم الحسـين عليه السلام رمز المقاومة والاستشهاد و قبلة المضطهدين دون أن يسرد قصّته مباشرة. «البياتی، أثناء سفرته إلى ايران، قال فی ندوة أقيمت له فی مدينة قم: أنا عندما ورد اسم الحسين عليه السلام لم أكتب عنه شيئا مباشرا، وأشرت إليه كرمز عظيم من رموز الاستشـهاد و مـن التفكير أيضا، يعنی وصفته كرمز و علامة من علامات التطور الإنسـان أن أضعه كشیء مباشر ولكن كشیء فنّی جاء فی قصائدی.» (فوزی، ١٣٨٣ش: ١٩٨)

يقـول البياتی، فی قصيدتـه "مذكرات رجـل مجهول" من ديـوان "أباريق مهشمة":

أنا عامل، أدعی"سعيد"
من الجنوبْ
أبوای ماتا فی طريقهما إلى قبر الحسين
وكان عمری آنذاك
ستين، ما أقسى الحياة
وأشع الليل الطويلْ
والموت فی الريف العراقی الحزين
وكان جدی لايزال
كالكوكب الخاوی، على قيد الحياة.
(البياتی، الأعمال الشعرية، ج١: ١٨٦)

اسـتهلّ البياتی قصيدتة مشـيرا إلى عامل اسمه سـعيد ويذكر لنا أنَّ والديه قدماتا و هما سافرا لزيارة مرقد الإمام الحسين عليه السلام. يمكن أن يرمز سعيد فی هذا

المقطع إلی الشعب العراقی الذی یعانی من وطأة الفقر بدلیل الظروف السیئة التی تحکــم العراق.إنهم التجأوا إلی العمالة للإنقاذ من الفقر وأیضا یمکن أن نحســب والدیه رمزا للشعب العراقی وخاصة للشیعة فی العراق - اخترنا الشیعة لأنَّ النزعة الاستشــهادیة فیهم أقوی بالنســبة إلی أقوام أخری - الذین یثورون علی النظام الفاسد الذی یحکم و یطلبون ترسیخ العدالة والحقیقة المفقودتین.

إنَّ الموت فی الطریق المؤدّی إلی قبر الحســین‌علیه‌السلام یکشف لنا عقیدة والدی سعید، إنّهما اختارا طریقة الحسین‌علیه‌السلام و عزما علی أن یثورا ضدّ الحکومة الفاسدة التی تســود علی الشــعب ولو لقیا حتفهما فی ســبیل نضالهمما لأنَّ هذا الموت یضمن تخلید الحقیقة للأجیال القادمة.

یختفی البیاتی وراء قناع الحســین‌علیه‌السلام ویقول ما یروم. یقصد الشــاعر أن یثیر النزعة الاستشهادیة والمکافحة بین الشعب و یقنهم أنّ الثورة وحدها تقدر علی أن الحریة المســلوبة والحضارة المسحوقة ولا معنی للصمت و إن یدم التکلؤ فینتهی کلّ شیء، یموت الأمل و تحیطهم لیالی البؤس الحالکة.ربّما أیأس البیاتی ما رآه من الناس و فقد أمله لإنقاذ المجتمع فتدلّ هذه العبارة علی خیبة أمله لأنّه یجد المناضلیــن ضدّ النظام مقتولین والعراق غارقــا فی الحزن والألم و"جدّ" فی هذه القصیدة رمز یغمر إلی العراق وهم نجم مطفیء فی السماء مثل الناس فی العراق الذین یعتبرون أمواتا متحرّکین.

یمکــن أن نتطــرّق إلی هذا المقطع من وجهة نظر أخری؛ فالموت فی ســفر الزیارة یذکرنا بجملات انتحاریة فی المراقد المطهّرة للأئمة الهدی(علیهم السلام) إنَّ محبّــی أهل البیت‌علیهم‌السلام یتحینون الفــرص للاجتماع فی تلك المراقد لکنّ هذه الاجتماعات تؤذّی المستعمدین والإرهابیین ذوی الصلة بهم لأنّهم یحسبونها من أسباب الوحدة والطغیان علیهم و لذلك یقبلون علی الاغتیال والمجزرة.

و فی قصیدة أخری "رسائل إلی الإمام الشافعی" من دیوان "قصائد حبّ علی بوّابات العالم الســبع" یتحدّث الشــاعر عن طفولته التی ارتبطت بفقراء الأرض و معجزات الفجر و رموز الشهادة و القوّة:

قبلت شباك "الحسین" وغسلت الحجر الأسود بالدموع
نضوت فی مواکب العزاء

طفولتى مستنجدا بقوة الأشياء
بفقراء الأرض
و معجزات الفجر
(المصدر نفسه، ج۲: ۲٤۲- ۲٤۳۹)

يشرح البياتى فى تلك الأسطر أنه آمن بالحسين إيمانا ينبع من القلب وبالعقائد الحسينية وخاصة النزعة الاستشهادية وعدم الاستسلام أمام الظلم.إنّه زار قبر الحسين عليه السلام و قبّل ضريحه المطهّر و ذرف الدمع هناك فجرى الدمع للحسين عليه السلام يمحو آثار الذنب السوداء من القلب.يحكى البياتى لنا أنّه بكر بكاء مرّا فى هيئات التعزية إلى أن وجد نفسه على وشك الموت يمكن أن نقول إن الشاعر يشير إلى عقائد الناس فى الأيام الخالية التى كانت وثيقة جدّا و من ثمّ كانوا مضطرين ضدّ الظالمين و كانت النزعة الاستشهادية و اتّباع الحسين عليه السلام فيهم أكثر و أقوى ولكنّهم الآن استغاثوا بالصمت و التغافل يريد البياتى، كما أشرنا سابقا، أن يحيى النزعة الثورية فى الشعب وإن خيمت عليه قلّة الأمل أو قلّة اليأس القاتل.

يقدّم البياتى لنا لمحة عن حياته الطفولية واتّصاله بالفقراء قائلا إنّ الناس آنذاك كانوا أنشط لمساعدة الفقراء ويبذلون قصارى جهدهم فى هذا السبيل. يحكى الشاعر عن إعجاز الفجر أى إلحاح الناس على أن يعينوا الفقراء قبل طلوع الفجر و دون أن يعلم الآخرين. فى الحقيقة يروى البياتى لنا ذكريات الطفولة الحلوة ويتأسف لهذا العهد الذى ماتت الأوصاف الحسينية فى القلوب بعد أن يسيطر المستعدون والحكام العملاء على المجتمع.

النتيجة

إنَّ القناع أحد أشكال الرمز و وسيلة للتعبير عن تجربة معاصرة و يعبّر الشاعر من خلال القناع تعبيرا غير مباشر عن أفكاره السياسية و الاجتماعية و تجليا من تجلّيات حداثة القصيدة العربية. لعلّ البياتى أوّل شاعر يتحدّث فنيا عن مفهوم القناع فى الشعر و لعله أيضا أكثر الشعراء قوة فى استخدام القناع، بالإضافة إلى استخدام الشخصيات التاريخية و الدينية و... و شعر البياتى هو شعر القضايا الثورية، و السياسية، و الوطنية، و العالمية. توظيف الإمام الحسين عليه السلام فى قصيدة

البیاتی یکون بشــکل مکتف و تراءی قناع هذه الشــخصیة فی أنماطه المختلفة فی مواضع شــتّی، لیعبــر به عن ملامح تجربة أولا ومعاناة نفســه وشــعبه ثانیا. یعتمد البیاتی فی قناع الإمام الحسین علیه السلام علی الأفکار والرموز الإسلامیة و خاصة الشیعیة. اشتهر البیاتی کثائر و مناضل ضد النظام الفاسد یسیطر علی مجتمعه و یرید أن یحقق العدالة و بهذا السبب نلمس المتشابهة من حیث الأفکار و العقائد بینه و بین الشخصیات التی یوّظفها کالقناع فی أشعاره و منها الإمام الحسین علیه السلام. ذکر البیاتی فی شــعره اسم الحسین علیه السلام رمزا للمقاوة و الاستشهاد دون أن یبین قصته مباشرة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی